Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشذوذاته، وعالم العبيد والجواري، والخوارق والمعجزات ذات اللبوس المخيالي أو الفنتازي، فإن الكتاب الرابع (دون كيشوت) لا يزال يحظى بالتقدير والكلام المدائحي لأكثر من سبب في بلاد الغرب، وهو جدير بذلك لأن الغربيين لا يهمهم إلا إنصاف أنفسهم، فهم نظروا إلى طرافة الكتاب وموضوعته دون أن يعنيهم النيل من العرب، كما لا يزال الكتاب يحظى بتقدير النقاد والكتّاب العرب ومدحهم دون أن ألحظ، في كتابة أيّ منهم، إشارة واحدة، ولو كانت خفية أو مضمرة، إلى العدوانية والسخرية المرّة تجاه كل ما هو عربي ومسلم في آن معاً، وسأدلل على قولي هذا بشواهد مستقاة من بين تضاعيف الكتاب نفسه، ولكن قبل ذلك أود الوقوف عند السيرة الذاتية لمؤلف هذا الكتاب، وعند الفترة التاريخية التي أنتجت هذا الكتاب، والمرجعيات والمصادر التي كوّنته وكوّنت مؤلفه أيضاً، مع قناعتي الأكيدة أن هذه الكتب الأربعة التي ذكرتها آنفاً لم تكسب أهميتها لأنها انتقدت العرب والحضارة الإسلامية، وإنما لما حفلت به من أفكار مهمة أخرى، وبناءات فنية عالية المقام، لا يأتي بها –عادة– إلا أدباء من درجة راقية، ورتبة رفيعة.

صاحب كتاب (دون كيشوت) هو ميغيل سرفانتس المولود سنة 1547 لأب مهنته طبيب جرّاح، أمضى طفولته في مدينة بلد الوليد، ودرس في مدن أسبانيه عدة، إذ تنقل مع أسرته بين المدن الأسبانية بسبب ظروف عمل والده الطبيب الجراح المتنقل، وقد تعلّم في فترة شبابه في إحدى الجامعات الدينية (ذلك التعليم الذي سيؤثر في أفكاره وتوجهاته كثيراً)، وقبل أن يزاول عمله، فرّ هارباً إلى إيطاليا لأن عقاباً قضائياً وقع عليه بسبب مبارزة جرت له مع أحد الأشخاص، أخلّ هو بشروطها، فقتل خصمه بطريقة غير نبيلة، وكان الحكم الذي صدر بحقه يقضي بقطع يده اليمنى، ونفيه مدة عشر سنوات، غير أن هذا الحكم لم ينفذ بسبب فراره إلى إيطاليا، وقد التحق هناك بخدمة أحد الكرادلة، فتعلم الإيطالية وأجادها، وفتن بالحياة العامة للشعب الإيطالي كما فتن بالآداب الإيطالية، ومناخ الديموقراطية والحريات الذي يسود سائر مناحي الحياة هناك، وقد لقب روما بـ(سيدة الدنيا). ولم يستمر سرفانتس في عمله طويلاً مع ذلك الكاردينال الإيطالي لأنه التحق بإحدى الفرق العسكرية الأسبانية الموجودة في إيطاليا سنة (1568)، وقد شارك في إحدى المعارك البحرية ضد الأتراك وأبدى بسالة ملحوظة، إذ فقد في هذه المعركة كفه اليسرى، ومع ذلك ظلّ يعمل في أجواء البحرية وعالم القرصنة، فقد كان مشاركاً لجماعته في الإغارة الدائمة على الثغور البحرية